تمهيد

يقوم هذا الكتاب على أساس شهادات أدلى بها إيرانيون وعراقيون ولبنانيون وفلسطينيون ومصريون - نشطاء، صحفيون، لاجئون، منفيون وأكاديميون - من مختلف التوجهات السياسية التي تراوحت بين التوجهات الإسلامية والحداثية إلى اليسارية العلمانية والقومية والنسوية. حاورتُ هؤلاء طوال الفترة ما بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩، في إيران وسوريا وفلسطين ومصر وبريطانيا.

وعلى الرغم من أن العنف الذى ساد العراق حال بينى وبين الذهاب هناك، فقد أجريت حوارات مع عراقيين فى سوريا وإيران والمملكة المتحدة. أثرتُ فضول الكثيرين منهم. فعلى الرغم من أننى أشبههم، فلم أكن أتحدث العربية أو أرتدى الحجاب. سألونى «من أين أنت؟» وحينما كنت أقول «من إيران» كان رد فعلهم المباشر هو «أهلا وسهلا، إيران زينة». فى إحدى زياراتى للقاهرة، قال لى حارس لأحذية المصلين فى إحدى ضواحى القاهرة الفاطمية، وكان رجلا فى منتصف العمر «إيران كويسة، إن شاء الله تصنع القنبلة». كانت تلك المشاعر تتكرر على مستوى يومى فى جميع زياراتى لبلدان المنطقة، يرددها سائقو سيارات الأجرة وأصحاب المحال التجارية والناس بالمطاعم. كان تماهيهم مع «إيرانيتى» مذهلا – ليس على أساس أننى امرأة غير محجبة من ذلك الجزء فى العالم، أو لأننى مسلمة

أو شيعية، أو غير مسلمة، أو علمانية، أو أى من هذا. كان يكفيهم أننى إيرانية كى يعبروا عن دعمهم لإيران. كانت تلك المشاعر هى التى حفزت اهتمامى بإجراء الأبحاث، والكتابة عن صورة إيران فى مدركات تلك المجتمعات، كبلد يمر بتغيرات على المستوى الداخلى، وأيضا من حيث دورها فى المنطقة وفى نطاق السياسة الكوكبية. وهكذا، شكلتْ أبحاثى الميدانية، وبخاصة حوارتى، جزءا مهما من تحليلاتى.

مقدمة

مهمتى فى كتابى هذا مزدوجة. أولا، سأناقش ديناميات السياسة الداخلية فى إيران منذ عام ١٩٧٩. فعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة، بزغت إيران كدولة دينية/ سياسية - أى دولة دينية ذات تركيز كبير على الأيديولوجيات القومية والمعادية للإمبريالية. سيوضح تحليلى لإيران منذ عام ١٩٧٩ أن التناقضات المتأصلة فى الدولة الإسلامية آخذة فى العمل على تغيير حدود الإسلام المحافظ وفى سبيلها لأن تؤدى إلى ظهور حركة ديموقراطية مهمة.

ثانيا، أناقش المدركات الكوكبية والإقليمية عن سياسة إيران الخارجية منذ ثورة عام ١٩٧٩ والتى اكتسبت تأييدا لدى غالبية شعوب الشرق الأوسط. سأحاول تقديم الحجج على أن تأثير إيران ونفوذها يعكسان كيف أن الجماعات المتنوعة فى البلدان المختلفة ترى سياسة إيران الخارجية نقيضا لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. وعلى الرغم من تنوع الهويات الدينية والقومية، تتماهى غالبية الشرق الأوسط مع موقف إيران ضد الولايات المتحدة وإسرائيل فى مواجهة ما يسمى «الحرب على الإرهاب»، والنيوليبرالية، وتوجهات المحافظين الجدد، والصهيونية.

يضع هذا الكتاب ديناميات سياسة إيران الداخلية، وأثر إيران ونفوذها فى لبنان والعراق وفلسطين ومصر، يضعها فى السياق الأوسع للكلونيالية والإمبريالية والصهيونية. واستنادا على ذلك، يناقش تأثير

التطور الاجتماعى/ الاقتصادى، والتوجهات القومية والإسلامية، والمسار السياسى لتلك التجارب التى أنتجت تغيرات متمايزة في كل من تلك المجتمعات. وفى هذا السياق، أناقش سقوط اليسار العلماني، والقوميين العلمانيين، وأوضح خطوط صعود التيار الإسلامى كقوة بديلة، يقتضى هذا تفحص تناقضات الإسلام السياسى وأوجه قصوره وطبيعته الدينامية، وذلك لأن تلك العوامل المتعددة كان لها عميق الأثر على الديناميات الداخلية لإيران، وعلى نفوذها وتأثيرها فى أنحاء الشرق الأوسط.

ديناميات إيران الداخلية:

يصور غالبية الباحثين الغربيين إيران على أنها مجرد ظاهرة دينية «أصولية» ويتجاهلون الإنجازات الاجتماعية/ الاقتصادية الملموسة جداً

على أرض الواقع والتى أنتجتها ثورة ١٩٧٩. يعتبر إنكار هذا الجانب من تطور إيران خطأ، لأن هذا التحول الاجتماعى/ الاقتصادى هو الذى أتى بالحركة الديموقراطية القوية بما فى هذا حركة حقوق المرأة، والنشاط الطلابى والنقابى.

ظل هناك طوال سنوات القرن العشرين الأخيرة وحتى يومنا هذا نقلات وتغيرات متناقضة فى اقتصاد إيران ومجتمعها. فى أعقاب ثورة عام ١٩٧٩، قامت الدولة الإسلامية بتوزيع الثروة، ووفرت الرعاية الاجتماعية لغالبية الإيرانيين. مثّل هذا نقيضا لما كانت عليه الأمور، فى دولة الشاه العلمانية المؤيدة للغرب فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، والتى عملت على إثراء نخبة صغيرة ولم تقم بتنمية بقية البلد. يعتمد الاقتصاد الإيرانى على عائدات النفط التى تمثل ٨٠٪ من مجموع دخل الدولة.

منذ التسعينيات شهدت إيران تنمية اجتماعية/ اقتصادية وبشرية مستدامة وواسعة المدى. أدى النمو الاقتصادى إلى التحضر (زيادة نسبة المدن بمعدل ٧٪) ومعدل أعلى للإلمام بالقراءة والكتابة والقضاء على الأمية (٨٩٪ داخل المناطق الحضرية و٧٥٪ فى المناطق الريفية) وإلى ظهور الطبقة العاملة الحديثة. أصبح تواجد مجموعات الشباب السكانية المتعلمة المندمجة عرقيا، ذات المستويات المختلفة من التدين والعلمانية أصبح مرئيا ملموسا، ومعه مشاركة متزايدة للنساء فى الحياة العامة. تتحدى مثل تلك المجموعات الدولة التى كانت السبب فى وجودهم.

أدى التحسن النسبى فى الصحة والتعليم والعمالة إلى زيادة الوعى الاجتماعى/ السياسى لدى أفراد الشعب، وإلى ارتقاء طموحاتهم، أدى هذا بدوره إلى مزيد من تطور التنظيمات النسائية والطلابية والعمالية.

ديموقراطية القاعدة فى إيران:

فى التسعينيات أدت الضغوط من أسفل إلى انتخاب حكومة محمد خاتمى الإصلاحية (١٩٩٧– ٢٠٠٥). كانت هذه فترة توسع تنظيمات المجتمع المدنى وتمكينها، ومعها الإعلام والحركات الاجتماعية. نادت العناصر الأكثر تقدمية داخل الحركة الإصلاحية بانتشار جماهيرى للديموقراطية، ويعتبر الإسلاميون الحداثيون Roshanfekrane Dini جزءا مهما من هذه الحركة. يؤمن هؤلاء بجدلية العلاقة بين العقيدة والمعرفة ويتبنون انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة. يقترحون، فى سياق التوجهات الفردانية، والديموقراطية وحقوق الإنسان، فصل القيم الدينية عن الواقع العلمانى.

منذ نهاية الحرب الإيرانية/ العراقية (١٩٨٨) تبنت جميع الحكومات، على المستوى الاقتصادى، النيوليبرالية والخصخصة والاندماج مع الاقتصاد الكوكبى فى ظل تحكم الدولة القوية. أدى انتهاء بنية الدولة التدخلية منذ منتصف التسعينيات إلى ارتفاع معدل البطالة وتراجع جودة الخدمات الاجتماعية وانخفاض مستوى المعيشة. فى عام ٢٠٠٥ تم فوز المرشح الرئاسى أحمدى نجاد على أساس برنامج انتخابى يقوم على مكافحة الفقر والفساد. بيد أنه، فمنذ آنذاك، تنامى الفقر والفساد، والخصخصة تحت تحكم الدولة(١). فاقمت تلك المشاكل الاقتصادية

---

(١) يرى بعض المراقبين والمتخصصين فى الشأن الإيرانى والشئون الدولية، مثل چيمس بتراس أنه، على حين أن معدل البطالة قد ارتفع فى المراكز الحضرية الثرية، فقد انخفض فى المناطق الريفية والفقيرة حيث تقوم الدولة بدعم الصناعات الصغيرة والمنزلية، والأنشطة الزراعية كما أنه لابد من أخذ العقوبات الاقتصادية والحصار المفروض على إيران فى الاعتبار كسبب فيما تعانيه إيران من مشاكل اقتصادية واجتماعية. (الترجمة).

ومعها القمع السياسى ما يشعر به قسم كبير من السكان من مظالم، حيث أوضح هؤلاء استمرار معارضتهم التى بدأوا فى التعبير عنها فى تظاهرات ما بعد انتخابات ٢٠٠٩.

دعم عدد من رجال الدين البارزين الحركة من أجل الحقوق الديموقراطية. فى أعقاب ثورة ١٩٧٩ رأى كل من آية الله العظمى مطهرى (١٩٢٠- ١٩٧٩) وآية الله العظمى منتظرى (١٩٢٢- ٢٠٠٩) أنه بالإمكان فصل الفكر الدينى والجماعة الدينية عن السياسة وسلطة الدولة. وبعد ذلك، تحدى رجال دين منشقون، وصحفيون، وأكاديميون وهؤلاء الذين رأوا أنفسهم «مفكرين متدينين جداً»، تحدوا الأرثوذكسية المهيمنة. تبنوا الدعوة إلى انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة، مما يعنى واقعيا الفصل بين القيم الدينية والواقع العلمانى. يعتقدون أنه بالإمكان إنجاز نظام حكم إسلامى عادل تسود فيه العدالة وحقوق الإنسان. وكما يرى والى نصر، فإن خطاب رجال الدين الإيرانيين هؤلاء يماثل خطاب آية الله العظمى حسين فضل الله، المرشد الروحى لحزب الله فى لبنان، وآية الله العظمى السيستانى فى العراق، حيث ينادى هؤلاء المؤدلجون الشيعة بإحياء مفهوم «حلقة الوصل بين التعاليم الدينية ومتطلبات العصر والمكان» والذى هو المفتاح لتأويل إسلامى للتطورات والملابسات الحديثة، والقوى التى تعمل على تشكيل خطاب الديموقراطية فى الشرق الأوسط.

ثمة إشكالية تحيط بمفهوم الديموقراطية الذى يعنى فى هذا الكتاب النضال ضد الاستبداد وترسيخ الحقوق الديموقراطية والفردية. فى بداية القرن العشرين، ثار جدل فى أوساط الحركات المختلفة فى إيران التى كانت تشمل القوميين والشيوعيين والليبراليين والإسلاميين حول قضية

الديموقراطية وفقاً لأيديولوجيات كل منهم. بيد أن ظاهرة نشطاء المجتمع المدنى، التى بدأت فى أواسط التسعينيات، هى ظاهرة جديدة. يسعى غالبية الإيرانيين إلى إيجاد توازن بين سلطة مؤسسات الدولة وبين المجتمع المدنى من أجل ضمان الحكم الصالح والمحاسبة، والحريات الجمعية والفردية وتحديد مكان الدين فى السياسة.

يعتقد الغالبية فى انتشار الفكر الأيديولوجى الحديث فى سياق إيران والإسلام. يرفضون، فى هذا السياق، الثنائيات المتعارضة مثل «الحديث / التقليدى» و«الغرب / الإسلام» ، ويحرصون على عدم تحديد حركتهم بصفتها مجرد تابعة لـ «الثقافة الغربية» أو محاكية لها. ذهب اليسار العلمانى والقوميون داخل هذه الحركة إلى ما هو أبعد من ذلك ورأوا أن الديموقراطية لابد أن تضم تمثيلاً أكبر للتنوع الاجتماعى فى إيران.

من ثم، وكما رأينا، فإن الحركة الديموقراطية فى إيران قوة قاعدية فاعلة. وعلى الرغم من محاولات الحكومات الغربية فرض «تغيير النظام» من خلال عمليات سرية وتمويلات لـ «الديموقراطية بالأسلوب الأفغانى والعراقى» فإن حركة الديموقراطية – تحت مظلة الحركة الخضراء التى انبثقت فى أعقاب انتخابات ٢٠٠٩– مستقلة ولن يستغلها العملاء الأجانب أو يتلاعبون بها. كانت أهداف ثورة ١٩٧٩ هى الاستقلال والحرية والعدالة. أنجز الاستقلال، بالنسبة للغالبية، مع الإطاحة بنظام الشاه الذى كان قد أبقى على إيران دولة عميلة تابعة للولايات المتحدة. فى ظل الجمهورية الإسلامية، مازال النضال مستمرا من أجل الديموقراطية، مع دعوات إلى التضمين السياسى، وزيادة الحريات المدنية والفردية.

سياسة إيران الخارجية فى الشرق الأوسط:

منذ ثورة ١٩٧٩، وعلى الرغم من التوتر بين القومية الإيرانية والعربية

ووجود المذهبين الشيعي والسنى، علاوة على أشكال متنوعة من التدين والعلمانية، ظلت السياسة الإيرانية الخارجية تحظى بالشعبية لدى غالبية جماهير الشرق الأوسط. كثيرا ما ذكّرنى من حاورتهم بالمثل الشعبى «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». يناقش هذا الكتاب، بتفحصنا للعلاقة الدينية/ السياسية بين إيران ولبنان، وإيران والعراق، وإيران وفلسطين وإيران ومصر، يناقش السياق الإقليمى للدولة الدينية/ السياسية الإيرانية: سبب بزوغ إيران كقوة فى هذه المنطقة مع إمكانية تأثيرها، فى الوقت المناسب، فى السياسة الإقليمية والكوكبية. بؤرة التركيز هى على تعقيدات القوميات والأديان، وبخاصة التأويلات التاريخية لثنائية السنة/ الشيعة والهويات العربية الإيرانية، المسلمة، الشيعية السنية، غير المسلمة، والعلمانية والمُهجنة.

شعوب الشرق الأوسط غير مطلعين على الواقع الإيرانى. يتحدث العالم العربى بالعربية. فيما يتحدث الإيرانيون بالفارسية، من ثم، لا يوجد سوى قليل من التواصل بين العرب والإيرانيين. قد يتشارك المثقفون فى المنطقة استخدام اللغة الإنجليزية، بيد أن العاديين يميلون للتواصل مع بعضهم من خلال مُدركهم المشترك عن دور أمريكا وإسرائيل فى المنطقة. سيوضح هذا الكتاب كيف أن سبب شعبية إيران فى لبنان وفلسطين ومصر هو ببساطة أنها الدولة الوحيدة فى المنطقة التى تدعم الفلسطينيين واللبنانيين، فيما تعارض الصهيونية والسياسات الغربية – وبخاصة سياسات الولايات المتحدة فى المنطقة(١). هذا على الرغم من أن إعلام التيار الرئيسى للدول العربية وسياسييها يصورون إيران على أنها تهديد من دولة شيعية غير عربية للعالم العربى السنى.

---

(١) تُغفل المؤلفة الموقف السورى الرسمى. (الترجمة)

بالطبع، فإن ثنائية الشيعة / السنة هى واقع تاريخى، ثقافى، فقهى وسياسى. لكن، وكما سأناقش فى هذا الكتاب، فإن هجمات إسرائيل على الفلسطينيين واللبنانيين قد عملت على التقريب بين تلك الجماعات وبعضها، وبينها وبين إيران. فهم ينظرون إلى إيران بصفتها حداثة إسلامية، نموذجا للممارسة الإسلامية الثورية؛ ولقوة الدولة الإسلامية ذات الإرث الطويل فى النضال الشعبى ضد الإمبريالية على أنها قوة للمنطقة.

بيد أنه فى حالة العراق، تنقد غالبية شعوب الشرق الأوسط دور إيران هناك ويتشاركون كثيرا مع العراقيين الرأى فى أن صعود القيادات الشيعية فى العراق إلى السلطة هو نتيجة مباشرة لسياسة الولايات المتحدة حيث يرون أن أمريكا قامت بتدمير العراق لاستخدامه، بين أسباب أخرى، قاعدة لتهديد سيادة إيران. فى ظل تلك الملابسات، يرون أن إيران تناور من أجل التواجد فى العراق لمجابهة التهديد المحتمل من الولايات المتحدة وإسرائيل. من ثم، غدت العراق ميدان قتال للولايات المتحدة وإيران تتقاتلان فيه من أجل تسوية خلافاتهما وغدا العراقيون ضحايا لعلاقات متناقضة تقوم على الصراع والتواطؤ بين القوتين.

يناقش الكثيرون أيضا القمع السياسى فى إيران. فعلى الرغم من الدعم القوى الذى تتمتع به إيران فى لبنان وفلسطين ومصر، أثارت التظاهرات التى حدثت فى إيران فى أعقاب انتخابات ٢٠٠٩ التساؤلات من جانب اليسار العلمانى، والقوميين والإسلاميين فى هذه المجتمعات وبخاصة بعد أن شاهدوا الضراوة ضد المتظاهرين مما جعل الكثيرين يتعاطفون مع الحركة ويشعرون بعدم قدرتهم على الثقة بنظام لا يخضع للمحاسبة من قبل شعبه. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم، وفى وجود الدعم

الغربي والإسرائيلي، ودعم إعلام التيار الرئيسى العربى للحركة الديموقراطية فى إيران فإنهم يتساءلون عما إن كانت الحركة محاولة خارجية لزعزعة الوضع فى البلد. من ثم، كان الدعم المحدود والمبهم من الشعوب العربية للحركة الديموقراطية في إيران. لقد احتكرت الدولة الإيرانية الموقف المعادى للإمبريالية والصهيونية ولا تسمح بأية مظاهرات أو تنظيمات مستقلة. ولهذا السبب، فإن حركة الديموقراطية الإيرانية، وفى معارضتها للدولة الإيرانية، أخطأت بعدم تعبيرها عن أى دعم للحركات المناهضة للصهيونية فى المنطقة، بل إنها، في بعض الحالات، أبدت عداء للفلسطينيين واللبنانيين. وللأسف، فإن الانقسامات بين الحركات فى المنطقة ستعمل فقط على تقوية النظام الإيراني، والأنظمة العربية، والغرب بسياساته القائمة على استراتيجية «فرق تسُدْ».

فى تلك الأثناء، يُلقى دور إيران فى العراق، ومع القمع الداخلى، بالظلال على تلقى إيران الإيجابى فى المنطقة. وفيما يجرى إعداد هذا الكتاب للطباعة، فقد حلّت تركيا – وهى دولة علمانية تناصر الفلسطينيين – فى أعين الكثيرين محل إيران كبديل للدول العربية التى فقدت مصداقيتها بسبب موقفها السلبى من الصهيونية والإمبريالية.

صعود التيارات الإسلامية فى المنطقة:

يثير تحليل الديناميات الداخلية الإيرانية، والعلاقات الدينية/ السياسة بين إيران ولبنان، إيران والعراق، إيران وفلسطين وإيران ومصر، يثير التساؤلات عن السبب الذى أدى بالإسلاميين أن يترسخوا بصفتهم بديلا فى تلك المجتمعات. ما طبيعة هؤلاء الإسلاميين السياسيين؟ طوال خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وحتى بعد وفاة جمال عبدالناصر – أهم زعيم قومى عربى – لعب اليسار العلمانى والقوميون دورا رئيسيا

كحركات معارضة للأنظمة فى المنطقة وفى حشد الجماهير ضد الهيمنة الإمبريالية والصهيونية. بيد أن نمو الحركات الإسلامية أصبح جلياً فى أعقاب الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. والآن، وفى نهاية العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، غدا الإسلاميون قوة المعارضة المهيمنة بين الفقراء فى المدن، والمهنيين، والطلبة، والنساء، والعمال. لا يقتصر هذا التنامى فى التأثير والنفوذ على قيام دولة إسلامية فى إيران، وصعود حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين فى مصر، بل إن المنطقة كلها تشهد مدى من التنظيمات الإسلامية الأخرى، وتزايداً فى تأثير الكتاب والمفكرين والدعاة الإسلاميين غير المرتبطين بأية تنظيمات.

إن العملية التى انتقلت بها مقاومة الإمبريالية الأمريكية والصهيونية من اليسار العلمانى والقوميين إلى الإسلاميين لها دلالاتها. التوجهات الإسلامية ظاهرة اجتماعية/ سياسية، وبصفتها هذه، ينبغى فهمها من خلال التفسير التاريخى. علينا تعيين وضع الأيديولوجيات والتنظيمات الإسلامية داخل المجال السياسى وفهمها فى سياق القوى الاجتماعية الأوسع قوميا ودينيا وكوكبيا. يرى هذا الكتاب، باستخدامه التحليل التاريخى، أن ثمة عاملين حددا صعود الإسلاميين: أولا، فشل اليسار العلمانى والقوميين فى تحقيق مؤازرة قاعدية؛ ثانيا، دعم الغرب للأنظمة الديكتاتورية.

ثمة تنويعة من اليسار فى الشرق الأوسط تتبنى تأويلات وقراءات مختلفة للماركسية. تاريخياً، كان ثمة نزوع للتمسك حرفياً بـ«الشيوعية السوفييتية والإرث الستالينى». كان الحزب الشيوعى الإيرانى، وبدرجة أقل، حزب توده الشيوعى الإيرانى، يتمتعتان بقاعدة جماهيرية وتمكنا

من تطوير تحالفات ناجحة مع الحركات القومية. وعلى الرغم من ذلك فشل الموروث الستالينى فى أنحاء المنطقة فى تطوير مشاريع سيطرة ناجحة في إيران. ولبنان والعراق وفلسطين ومصر، لأنهم، ولعقود، عوقهم خضوعهم الكلى لمجموعات حددوها بصفتها «البرجوازية القومية التقدمية»، أو امتناعهم عن الدعم الناقد لقوى مثل القوميين والإسلاميين الذين كانوا يتمتعون بتأييد جماهيرى بين قطاعات المجتمع المقموعة. لم يدركوا أنه كان لمثل تلك القوى الإسلامية والقومية علاقات تواطؤ وصراع مع الإمبريالية والرأسمالية، أى أن موقف تلك الحركات المعادى للرأسمالية والإمبريالية كان يقتصر على استخدامه لحشد التأييد الجماهيرى من أجل تذليل العقبات التى أوجدتها الرأسمالية الكوكبية للحيلولة دون قيام دول ومجتمعات مستقلة.

وكنتيجة لهذا، لم يدعموا تلك الحركات باسم الحفاظ على استقلالهم السياسى من أجل تأييد الجماهير القاعدية لأيديولوجياتهم. بعد ثورة ١٩٧٩، أذاب الشيوعيون أنفسهم فى الدولة التى تماهوا معها بصفتها معادية للإمبريالية، وفى مصر، أيدوا قمع نظام مبارك للإسلاميين.

تاريخيا، تماهت غالبية الشعوب فى أنحاء الشرق الأوسط، فى وجود ذاكرتهم الجمعية للماضى الإمبريالى، وفى مواجهة الهيمنة الغربية العدوانية، والصهيونية وخضوع أنظمتهم للولايات المتحدة، تماهوا مع التوجهات القومية المعادية للإمبريالية. بيد أنه لم يكن للاتحاد السوفييتى أى اهتمام بأحوال تلك المجتمعات الموضوعية ومن ثم منع الشيوعيين من إقامة تحالفات مناهضة للإمبريالية مع القوميين. نتيجة لذلك، ظهرت الانقسامات فى صفوف الحركات الشيوعية وتشكلت جماعات منشقة. وعلى الرغم من أن بعضها تمكنت من البقاء بدرجات متفاوتة إلا أن

جميعها أُضعِفت بدرجة هائلة وتشتت. علاوة على ذلك، كان يهيمن على الاتحاد السوڤييتى نخبة ثرية فاسدة من بيروقراطية الدولة تدير مجتمعاً تسوده عدم المساواة الحادة. كان يعنى هذا أن «الشيوعية» قد تخلت منذ وقت طويل عن دورها التقليدى كنصير للشعوب المقموعة فى جميع الأنحاء، وبخاصة فى المجتمعات الخاضعة للسطوة الإمبريالية الغربية. وكان هذا ينطبق بشكل خاص على الشرق الأوسط. قوض قرار ستالين الاعتراف بدولة إسرائيل والمساعدة فى تسليحها الحركات الشيوعية فى أنحاء المنطقة، وهمش هذا الفشل فى فهم الصهيونية بصفتها من خلق الإمبريالية الغربية همّش بأسلوب حاد الإسهام الشيوعى فى تقدم المنطقة وتنميتها وتغييرها.

تاريخيا، ظلت القومية والتحرر من الإمبريالية متداخلتين فى المنطقة. كانت القومية ومعاداة الإمبريالية فى العالم العربى تعززان الدعوة إلى الوحدة العربية. ومنذ الخمسينيات أدمجت القومية العربية معاداة الصهيونية وبناء الأمة والوحدة العربية فى أيديولوجيتها، وكانت مصر فى قلب القومية العربية فى الخمسينيات والستينيات. من ثم، اعُتبِرت هزيمة إسرائيل لمصر فى حرب ١٩٦٧ هزيمة للقومية العربية، وبحلول التسعينيات كانت مصر قد تخلت كلية عن أى مسعى للوحدة العربية وتحرير فلسطين، ونجحت إسرائيل والولايات المتحدة فى عزل مصر عن العالم العربى. يرى المحللون أن هدف الولايات المتحدة هو الإبقاء على العالم العربى منقسما. كان للتحالف الأمريكى الإسرائيلى واستيعاب غالبية الدول العربية والدولة الإيرانية قبل ١٩٧٩ فى هذا التحالف أثر مدمر على القومية فى المنطقة. كما أدت سياسات الباب المفتوح الاقتصادية وتدهور الأوضاع الاقتصادية، واتساع فجوة عدم المساواة،

وفشل الأنظمة القومية العلمانية وتأثير الثورة الإيرانية، أدت كلها مجتمعة إلى صعود الحركات الإسلامية والعداء الشعبى تجاه الحكام وداعميهم الغربيين، ثم أدى احتلال العراق عام ٢٠٠٣ إلى إنزال ضربة قاصمة أخرى بالقومية العربية.

من ثم، كان الدعم الغربى للأنظمة الديكتاتورية فى المنطقة ومعه السياسات العدوانية الغربية/ الإسرائيلية هى العامل المهم الثانى فى انتهاء اليسار العلمانى والحركات القومية وصعود المجموعات الإسلامية الهامشية التى تتبنى العنف والتطرف. بيد أنه، يرى المحللون أن التطورات التاريخية للحركات الإسلامية، والسياق الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى، وأيضا مختلف العوامل الإقليمية والكوكبية كان لها جميعها أثرها على التنظيمات وعملت على تغيير تركيبتها الاجتماعية وحددت طبيعة الإسلام السياسى.

التغيير فى الإسلام السياسى:

يتخذ الإسلام السياسى أشكالا عديدة. وعلى الرغم من ذلك، يصفه الخطاب السائد للسياسيين الغربيين، والإعلام الغربى وبعض الأكاديميين على أنه «معاد للديموقراطية»، «إرهابى» و«أصولى» يتجاهل هذه النظرة وجود التناقض والتغييرات، وتختزل جميع أشكال التوجهات الإسلامية إلى هوية سياسية رجعية. ومن خلال منهج نقدى، يحدد هذا الكتاب موقع الإسلام السياسى فى إيران، لبنان، العراق، فلسطين ومصر داخل سياقاتها التاريخية والسياسية/ الاجتماعية. يذهب هذا الكتاب إلى أنه ينبغى التمييز بين التوجهات المختلفة داخل التيار الإسلامى، بدلا من خلطها والحكم عليها بأنها أصولية ومعادية للديموقراطية وإرهابية. إن تصوير الشرق الأوسط ذى الغالبية المسلمة،

على أنه كتلة صماء جامدة، وتصوير الإسلام بصفته ثقافة وديناً غير قابلين للتغيير، يتجاهل التغيرات الاجتماعية/ الاقتصادية والاجتماعية/ السياسية فى تلك المجتمعات، وبخاصة الحركات التى تناضل من أجل الإصلاح. وكما يبين هذا الكتاب، فإن تلك العوامل الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية هى التى تحدد ثقافات تلك المجتمعات بأكثر ما يحددها الدين، تتجاهل النظرة إلى تلك المجتمعات بصفتها دوغماتية جامدة تتميز بالعنف مقارنة بالعلمانية الغربية، تتجاهل وجود تلك الملامح ذاتها فى المجتمعات العلمانية وتنكر قدرة الإسلاميين على تأويل أحكام الشريعة الإسلامية بما يتفق مع التطورات الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية. وفى هذا السياق فإن خطاب «صراع الحضارات» الذى طرحه صمويل هنتنجتون (١٩٩٨) وبرنارد لويس (٢٠٠٣)، الذى يرى وجود صراع بين الإسلام المعادى للحداثة وبين الحداثة الغربية، هو فى أفضل الأحوال خطاب تبسيطى وفى أسوئها عنصرى.

الحداثة عملية تحدث على مستويات مختلفة ويخبرها الناس بدرجات متفاوتة. توحى فكرة تعددية الحداثة بوجود عوامل مشتركة واختلافات بين تنويعة من الطرق إلى الحداثة وتتحدى الفرضيات القائلة بأنها ظاهرة غربية حصرية وأن أصولها غربية بالكامل. تُضمِر الحداثة أيضا تطورا رأسماليا، وقيام الدولة الحديثة، والتشريعات الدستورية، واحتكار السلطة على الشعب داخل إطار الدولة القومية، وتضمر أيضا إقامة مؤسسات مثل الجيش، والتعليم، والصحة، والتوظيف. والإعلام، مع ظهور طبقات مختلفة وعلاقات بطريركية. فى الشرق الأوسط، حدثت عمليات التطور الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى نتيجة للتلاقى بين الديناميات الداخلية والإمبريالية والكلونيالية، وأدى مزيج العوامل هذا

إلى تطور اجتماعى/ اقتصادى وسياسي غير متوازن نجم عنه استخدام الدول آليات وإجراءات قمعية في بعض الحالات، مع تعزيز للإجماع والشرعية فى آن. مثلا، تتخذ الدولة الإيرانية إجراءات قمعية ضد معارضيها، وفى نفس الوقت تكتسب الإجماع والدعم من خلال سياستها الحازمة المعادية للإمبريالية والصهيونية والداعية إلى الوحدة الإسلامية.

وكما سنناقش فى هذا الكتاب، قُتِل الآلاف من معارضى النظام السياسى فى الثمانينيات، كما تم قمع التظاهرات التى أعقبت انتخابات ٢٠٠٩، ومات عدد من الناس، وأصيب آخرون، واعتُقِل البعض، ووقعت بعض حالات التعذيب. يشكل هذا المستوى من القمع السياسى الوجه غير المقبول للإسلام السياسى الحديث. بيد أنه من المهم أن نبين أن مثل تلك الإجراءات القمعية حدثت فى ظل دولة الشاه العلمانية الموالية للغرب وإسرائيل كما أنها من ملامح الدولة السعودية الدينية المحافظة الموالية للغرب، وللدول العلمانية الموالية للغرب بالمنطقة مثل مصر(١). من ثم، لا يمكن الحكم على السياسات الإسلامية الحديثة بأنها بربرية وعنيفة كما تقترح أطروحة كتاب «صدام الحضارات». يرى عاصف بيات أن دولة إيران الإسلامية ليست نظاماً عتيقاً أو قبل حداثى، بل نظاماً أبوياً استبدادياً يمارس السلطة من خلال مؤسسات دولة حداثية(٢). وكما

(١) تحدث هذه الإجراءات، وبأسلوب أكثر ضراوة، فى روسيا فى قمعها للمعارضة الشيشانية، ناهيك عن الصين وغيرها (الترجمة).

(٢) ثمة تحفظات على هذه المقولة المرسلة. مثلا، يبين ناثان براون الباحث المتخصص فى الشئون الدستورية شرق الأوسطية أن جمهورية إيران الإسلامية هى أكثر الدول ديموقراطية فى المنطقة كما ورد فى كتابه «دساتير من ورق» الذى صدرت طبعته العربية عن سطور (الترجمة).

بينتْ الأحداث، فكلما قمعت أية دولة استبدادية الديموقراطية، تصاعدت المطالبات بها.

يرى هنتنجتون ولويس أيضا الإسلام بصفته العامل الرئيسى الذى يحدد تشكيل الدولة ويشوه المجتمع. يتعاطى هذا النهج مع المجتمعات ذات الغالبية المسلمة على أنها راكدة لا تتغير ويتجاهل قدرة منظمات وحركات المجتمع المدنى على تحدى الوضع القائم ومجابهة الأيديولوجيات المحافظة. وكما سنرى فإن منظمات المجتمع المدنى مثل الاتحادات النقابية ومجموعات النساء والطلبة والحداثيين الدينيين بخاصة، تتحدى الدول الاستبدادية مثل مصر وإيران. نشهد فى فلسطين ولبنان كيف تتحدى منظمات المجتمع المدنى المتنامية وداعموها، وبخاصة النشطاء الشباب المتعلمون والنساء- سياسات القيادات المحافظة حيث يناضلون ضد احتكار القيادات المحافظة للسلطة الدينية ومن ثم، يقومون بتحويل الحركات الإسلامية باتجاه الحداثة والتسامح والديموقراطية. وعلى سبيل المثال، فإن تنظيمات المجتمع المدنى فى العراق هى التى تقود المقاومة ضد الاحتلال وضد الحكومة التى تدعمها إيران[١]. تدين هذه التنظيمات الإرهاب وتدعو إلى إنهاء الاحتلال ووحدة الشعب العراقى. تلعب النساء بخاصة دورا مهما فى توليد المعايير والشبكات والعلاقات المتبادلة ذات الأهمية القصوى فى بقاء الجماعات الأهلية مع وجود الصراع الطائفى والاحتلال الأجنبى.

يرى إسلاميون كثيرون أن الإسلام يتسق مع الأيديولوجيات الحديثة

(١) لعل الكاتبة تقصد المقاومة السياسية، إذ إن مقاومة الاحتلال على الأرض تضطلع بها مجموعات لا تشارك فى اللعبة السياسية وينتمى أفرادها إلى جميع أطياف المجتمع العراقى، وتتواجد غالبية قياداتها فى المنفى (الترجمة).

مثل الليبرالية والماركسية وما بعد الحداثة. ومن ثم يرون أن بإمكان الإسلام، ومن خلال الإصلاح، أن يستوعب التغيرات الاجتماعية والتقدم والحريات السياسية. لعب على شريعتى عالم الاجتماع الإيرانى، وخريج جامعة السوربون والذى استخدم المفاهيم الماركسية عن الطبقات ومعاداة الإمبريالية ومزجها بالخطاب الشيعى الإسلامى، لعب دورا حاسما فى نجاح ثورة ١٩٧٩. كان أحد الكثيرين الذين أسهموا فى الفكر الإسلامى الحديث أثناء الفترة الثورية فى إيران من خلال الإصرار على اتساق الإسلام والحداثة وعلى أنه بالإمكان تأويل المفاهيم الإسلامية بما يتفق مع الزمان والمكان. ومن هذا المنطلق، ترى الغالبية فى الشرق الأوسط ثورة عام ١٩٧٩ الإيرانية على أنها نتاج حركة جماهيرية حديثة ناجحة لها جذورها فى المناطق الحضرية، كما فهمت غالبية المجموعات الشيعية فى أنحاء العالم الإسلامى الثورة بصفتها ثورة إسلامية جامعة. من ثم، يرى كثيرون من أهل السنة فى أنحاء المنطقة الثورة الإسلامية الإيرانية وموقف البلد المعادى للإمبريالية والصهيونية كقوة إيجابية فاعلة ويأمل كثيرون فى محو الخط الفاصل بين المذهبين الشيعى والسنى والتحرك باتجاه مقرطة البلاد ذات الغالبية المسلمة. ووفقا للاله خليلى، فقد عزز حزب الله اللبنانى الصورة الثورية للمذهب الشيعى، حيث أدى كفاحه المتواصل ضد إسرائيل إلى انتصاره عليها. نتج عن هذا حفاوة شعوب المنطقة بحزب الله وإيران، كما تبنى أنصار حركة حماس استراتيجيتها.

تاريخيا، ظل الرأى القائل باتساق الإسلام مع الحداثة عنصرا ثابتا فى فكر أهل السنة والشيعة معا. كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨- ١٨٩٧) الذى وُلِد فى إيران وتلقى تعليما شيعيا، كان رائدا

للحداثة الإسلامية – عمل على تحويل الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا دينية/ سياسية مع التركيز على مجابهة الهيمنة الغربية. وبالمثل قاد محمد عبده (١٨٤٩– ١٩٠٥) ورشيد رضا (١٨٦٥– ١٩٣٥)، اللذان تأثرا بفكر الأفغانى، مدرسة فكرية حداثية إسلامية أصبحت مهيمنة بداية من سنوات القرن التاسع عشر الأخيرة. أكد الحداثيون الإسلاميون، بأساليب مختلفة، على اتساق الإسلام مع الحداثة، بما فى هذا اكتساب العلوم الحديثة، والمساواة بين النوعين، وتعليم النساء. كما كان حسن البنا وسيد قطب من أتباع الأفغانى وعبده ولعب كلاهما دورا مهما ضد الاستعمار البريطانى فى مصر.

منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، زاد زخم المفهوم الغربى عن «تهديد الأصولية الإسلامية» وأعاد توليد أيديولوجيا الإسلاموفوبيا العنصرية. اشتهر عن إدوارد سعيد (١٩٧٨) وليلى أحمد (١٩٩٢) نقاشهما النقدى للاستشراق كوسيلة للهيمنة الغربية. يفند هذا الكتاب، من نفس المنطلق، مفهوم «الأصولية الإسلامية» الغربى حيث ينظر إليه على أنه يحوّل تنوع التيارات الإسلامية إلى ظاهرة واحدة متجانسة ويختزلها إلى جوهر واحد، ومن ثم يعمل على تغذية الاستشراق والإسلاموفوبيا.

تتراوح التيارات الإسلامية اليوم بين الوهابية الجديدة (التى انبثقت عنها القاعدة) والجهاديين المعادين للشيوعية (الذين صنعتهم السى آى إيه ودعمتهم ليقاتلوا الاتحاد السوفييتى فى الثمانينيات) وتبعتهم حركة طالبان، إلى تيارات الوحدة العربية والوحدة الإسلامية التى يمثلها الإخوان المسلمون[1] وحزب الله. أظهر الإخوان المسلمون وحزب الله وحماس قدرتهم على طرح سياسات تتيح الطريق لتقدم مجتمعاتهم ككل،

---

(١) لا يدعو الإخوان المسلمون جميعهم إلى الوحدة العربية. (الترجمة)

ولهذا السبب فهم يتمتعون بشعبية بين غالبية الجماهير شرق الأوسطية إلا أنه ليس بوسع طالبان أو القاعدة تبني مشروع كهذا، فهم يستمدون قوتهم بشكل أساسى من غزو أفغانستان، واحتلال العراق وجرائم الصهاينة فى فلسطين. من ثم، يناقش هذا الكتاب شكلا محددا من الإسلام المحافظ فى سياقه، وبالتقابل مع هذا التيار المحافظ يناقش شكلا محددا من الإسلام الإصلاحى الليبرالى الديموقراطى فى سياقه داخل إيران وفلسطين ولبنان ومصر ويذهب إلى أن الأوضاع الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية مازالت ماضية فى تغيير الحدود التى تفصل الإسلام المحافظ عن الإسلام الليبرالى الديموقراطى فى كل من إيران وفى أجزاء أخرى من المنطقة.

يرى البعض أن كثيرا من المحللين بدءا من الماركسيين وحتى ما بعد الحداثيين، والكتاب الذين يتبنون مفهوم الشعبوية، قد تجاهلوا التحولات فى الإسلام السياسى، وهم بتبسيطهم تنوع الإسلاميين والتناقضات الداخلية داخل الحركات الإسلامية، يتجاهلون ديناميات التغيير الداخلية. وكما يذهب هذا الكتاب، فإن الإسلاميين فى إيران، وتنظيمات حزب الله وحماس والإخوان المسلمين لا يختلفون عن بعضهم فحسب، بل إن لدى كل منهم تناقضاته المتأصلة وصراعاته الداخلية. بيد أن العامل المشترك بينهم هو أنهم، وفى غياب اليسار العلمانى والقوميين، فقد تمكنوا من كسب تأييد غالبية شعوب المنطقة وحشدهم ضد الإمبريالية والصهيونية. لا ينحصر دعمهم على أوساط «طبقة صغار البرجوازيين» أو «التجار الرأسماليين»، إذ إنهم يتمتعون بالتأييد بين الفقراء والأغنياء، والعمال والرأسماليين، والنساء والطلبة، ولدى جميع هؤلاء مصالح متعارضة. تبين روايات حزب الله اللبنانى، وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين

فى مصر، فى هذا الكتاب أن تلك التنظيمات قد تغيرت بمرور الوقت، وأن تلك المجموعات الإسلامية المتنوعة تسعى بأساليب مختلفة إلى إيجاد تسوية مع التوجهات الديموقراطية.

يدعو عاصف بيات هذه الحركات «الإسلام الاجتماعى» ويبدو هذا المصطلح مفيدا لأن تلك الحركات تساهم فى الخدمات الاجتماعية - توفير الرعاية الصحية والتعليم والمساعدات المالية للمحرومين. كما أنها تشترك فى تنمية المجموعات المحلية وإيجاد شبكات اجتماعية من خلال نشطاء التنظيمات غير الحكومية. وفى هذا السياق، فإن «الإسلام الاجتماعى» سياسى أيضا: لا تشارك هذه الحركات فقط فى توفير الموارد، بل إنها أيضا تكسب تأييد غالبية شعوبها من خلال عملها كبدائل سياسية وثقافية واقتصادية للأنظمة التى تكرس للنيوليبرالية والسلطوية والصهيونية والإمبريالية، من ثم تعبر عن صراعات شرائح عريضة من الحضريين فى مجتمعاتها.

أيضا، فإن اشتراك تلك المجموعات فى السياسة الانتخابية كتنظيمات سياسية حديثة يحمل دلالات مهمة، إذ إنها، وبصفتها هذه، قد كسبت تأييد شرائح مهمة من مجتمعاتها، وبخاصة بين النساء والشباب. منذ السبعينيات، ظلت جماعة الإخوان المسلمين تتحدى الدولة المصرية وحزبها من خلال الانتخابات وقد كسبت تأييدا بين النقابات المهنية والمجالس المحلية. كما عمل حزب الله منذ الثمانينيات باتساق ومنهجية، على كسب دعم الغالبية بين مختلف المجموعات فى لبنان من خلال المشاركة البرلمانية والاندماج فى السياسة اللبنانية. احتذت حماس حذو جماعة الإخوان وحزب الله وشاركت فى العملية الانتخابية حيث فازت بغالبية أصوات الفلسطينيين من جميع التوجهات والفصائل.

بيد أنه، ووفقا لأطروحة هذا الكتاب فإن من المحتمل للمواقف المعادية للإمبريالية والصهيونية التى ألفت بين النظام الإيرانى وحزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين فى مصر، من المحتمل لها ألا تدوم طويلا فيما تدخل هذه التنظيمات فى علاقات معقدة للتعاون والصراع مع قوى النيوليبرالية والإمبريالية(١). فى غياب اليسار العلمانى والحركة القومية، تتمتع هذه التنظيمات بدعم شعبى تحشده من أجل تذليل العقبات التى أوجدها الغرب فى الطريق لإقامة دول ومجتمعات مستقلة فعليا داخل إطار الرأسمالية الكوكبية. وعلى الرغم من أوجه قصوره، فإن هذا المسار إيجابى بقدر ما ينتج طريقا لعملية ديموقراطية توفر أرضية اختيار لمختلف الأيديولوجيات والتيارات السياسية لتثبيت قيمتها وأهميتها.

مع الأخذ فى الاعتبار معاناة شعوب المنطقة على أيدى الأنظمة الاستبدادية وإسرائيل والغرب فقد قام نجاح الحركات الإسلامية السياسي على أساس جمعها بين الطموحات القومية ومعاداة الإمبريالية والتأويلات الحديثة للإسلام. وكما يرى عاصف بيات فإن الأديان ليست ديموقراطية أو غير ديموقراطية بطبيعتها حيث يتوقف أمر مقرطة المجتمعات الإسلامية على قناعات الشعوب وإرادتها للصراع من أجل الديموقراطية، لا على جوهر الإسلام.

وكما يذهب هذا الكتاب، فإن غالبية الإسلاميين فى إيران ولبنان والعراق وفلسطين ومصر، من أفراد وجماعات وحركات، قد اعتنقوا فكرة الديموقراطية الإسلامية. يرون فى الإسلام أيديولوجيا لمقاومة القمع والهيمنة السياسية السلطوية.

---

(١) من المستبعد جدا بل يكاد يكون من المستحيل، أن يدخل حزب الله اللبنانى فى علاقات تعاون مع تلك القوى (الترجمة).

تعتبر حالة «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران مهمة بخاصة لأنهم متقدمون عن نظرائهم فى لبنان وفلسطين ومصر. يعتقدون أنه ليس بإمكان الدين فرض شىء على إرادة الشعب، الأحرى أن دوره فى السياسة ينبغى أن يكتسب الشرعية من خلال التأييد الشعبى الذى سيفتح الطريق، ليس فقط للقوانين والأحكام الإصلاحية بل أيضا لإقامة حركة اجتماعية متجذرة فى الديموقراطية.. يتواجد هؤلاء المفكرون الجدد داخل النظامَ وخارجه، وهم على استعداد غالبا للتحالف مع العلمانيين والقوميين الديموقراطيين واليسار ولديهم قاعدة دعم شعبى أوسع كثيرا من الحركات الديموقراطية الأخرى.

بيد أنه، فمن المعقول القول إن حركة المعارضة السياسية المصرية هى التى أوضحت الطريق قُدُماً من خلال العمل السياسى المشترك، ومحاولة التنسيق بين اليسار والقوميين والإسلاميين. وعلى الرغم من وجود عداوات معينة بين تلك المجموعات المتنوعة، فقد بزغ جيل شاب منفتح على التعاون يقوم بالتخطيط الواقعى لمقرطة المجتمع من خلال حملاته ضد الهيمنة الغربية ومعارضته القمع السياسى الذى يمارسه النظام المصرى. وهم يبرهنون من خلال دعمهم للعراقيين والفلسطينيين واللبنانيين على أنه فقط، ومن خلال الإضعاف الكوكبى لعلاقات الهيمنة، يصبح بالإمكان خلق مساحة للديموقراطية عن طريق النضال الجماهيرى. تاريخيا، ظلت النظم السلطوية فى الشرق الأوسط تقاوم التغيير السياسى. وعلى الرغم من ذلك، فإن الحركات المعاصرة فى المنطقة ماضية فى تغيير مجتمعاتها من الداخل. كان للغرب والصهيونية أثر مدمر على الحركات الديموقراطية مما أدى إلى تقوية الإسلاميين المتطرفين من أمثال القاعدة وطالبان. يعتمد مستقبل الديموقراطية فى

إيران والمنطقة على تحدى السياسات المحلية والهيمنة الإمبريالية أيضا، وعلى طمس الخط الفاصل الآخذ فى الاتساع بين الغرب والعالم الإسلامى.

فصول هذا الكتاب:

يبحث الفصل الأول فى الأسباب والموروثات التاريخية لثورة عام ١٩٧٩ فى إيران ويستعرض اللاعبين الرئيسيين – النساء، العمل، الإسلاميين القوميين، واليسار. يذهب إلى أن دعم الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا لنظام الشاه الديكتاتورى ومعه غياب الأفكار والاستراتيجيات المتسقة المقررة محليا لكسب دعم القواعد الشعبية أضعف اليسار العلمانى والقوميين وكان عاملا مساعدا فى ظهور التيار الإسلامى المحافظ فى السنوات التى تلت ثورة ١٩٧٩. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان ثمة حوار ومناظرات بين هؤلاء الذين رغبوا فى الحفاظ على الإسلام التقليدى المحافظ، وأولئك الراغبين فى اعتناق نموذج ديموقراطى حديث. زادت الحرب الإيرانية العراقية (١٩٨٠– ١٩٨٨) من شعبية الإسلام المحافظ فى إيران وفى أنحاء المنطقة مما أدى إلى تطور ممارسات القمع الداخلى، والسياسات الخارجية الإقليمية الشعبية.

يناقش الفصل الثانى تطور المجتمع الإيرانى فى التسعينيات ويدرس ظهور التحدى للإسلام المحافظ. يتفحص هذا الفصل ظهور الحركة الإصلاحية فى التسعينيات؛ ونضال الحركة الديموقراطية الذى مازال مستمرا (الاتحادات العمالية والنقابات، الطلبة، الأقليات الإثنية والدينية والنساء) فى ظل حكومة أحمدى نجاد منذ عام ٢٠٠٥، والتظاهرات التى أعقبت انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية. ينتهى هذا الفصل إلى أنه، وعلى

الرغم من الأشكال المحددة للأيديولوجيا المحافظة والقمع السياسى، ما زالت هذه الحركات مستمرة في نضالها حتى تتحقق الديموقراطية كاملة فى إيران.

يناقش الفصل الثالث التقسيم الشيعى/ السنى تاريخيا، وتغيير الخطاب الشيعى فى إيران: منذ صعود الشيعة إلى السلطة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر إلى تهميش رجال الدين الشيعة فى القرن العشرين، ومن استيلائهم على السلطة السياسية للدولة فى أعقاب ثورة ١٩٧٩ إلى التسعينيات حينما تحدى «المفكرون المتدينون الجدد» كجزء مهم من حركة الديموقراطية، حكم رجال الدين المحافظين. والهدف هو تحليل تضمينات الديناميات السياسية/ الاجتماعية الداخلية فى إيران بالنسبة للمنطقة.

يستعرض الفصل الرابع الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران ولبنان. يقترح أن ظهور حزب الله كان النتيجة المباشرة لاجتياح إسرائيل للبنان ولدعم الغرب لإسرائيل مما أدى إلى إضعاف اليسار العلمانى والحركات القومية وإلى صعود التيارات الإسلامية. ثم يناقش هذا الفصل كيف أن حزب الله، ومنذ بداية التسعينيات وبدعم من إيران، بدأ المشاركة فى السياسة الانتخابية. وكيف أنه يضطلع ببعض وظائف الدولة من خلال توفيره لبعض الموارد وكيف كسب تأييد غالبيته فى أوساط الطائفة الشيعية وأيضا الفلسطينيين السنة وشرائح من الطوائف المسيحية والدرزية. وفى هذا السياق فإننا نذهب إلى أن حزب الله، وعلى النقيض مما يراه عامة الغربيين، ليس امتدادا لإيران. فإن الشعبية التى يتمتع بها حزب الله بين غالبية من اللبنانيين هى رد فعل على حروب إسرائيل فى لبنان.

يتفحص الفصل الخامس الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران والعراق، وبخاصة علاقات الاستمرارية والتغيير بين طوائفهما الشيعية. نرى أنه، وعلى الرغم من الروابط الشيعية التاريخية بين البلدين، فإن غالبية شيعة العراق ظلوا، ومازالوا حتى اليوم، يتماهون مع التيارات القومية العراقية والعربية لا مع الشيعة الإيرانيين. إن صعود القيادات الشيعية إلى مواقع السلطة السياسية فى العراق لنتيجة مباشرة لسياسة الولايات المتحدة وحلفائها لـ «تغيير النظام» فى العراق. ونذهب أيضا إلى أن غالبية العراقيين بمن فيهم المجموعات الشيعية غير راضين عن الدور الإيرانى فى العراق وفى ظل التهديد الأمريكى والإسرائيلى لها تستغل إيران الوضع فى العراق لإلهاء البلدين عن هذه الهجمات. وكنتيجة لذلك، تحول العراق إلى فسيفساء من الفصائل المتناحرة وغالبية العراقيين إلى ضحايا للعنف.

يناقش الفصل السادس العلاقة بين إيران وفلسطين. توضح الخلفية التاريخية لقيام الدولة الصهيونية دعم الدولة الإيرانية فى ظل الشاه للصهيونية، وبالتقابل فقد عكِست السياسة الإيرانية منذ ثورة ١٩٧٩. يذهب هذا الفصل إلى أن صعود حماس وتوليها السلطة كان نتيجة مباشرة لسياسات الولايات المتحدة والدولة الصهيونية فى المنطقة. بمنتصف التسعينيات، ظهرت حماس، التى تدعمها إيران، كحركة مقاومة. ومثل حزب الله، تُشارِك حماس فى العملية الانتخابية وتوفر الخدمات الاجتماعية. يشهد فوزها فى الانتخابات بوضوح على تأييد غالبية قطاعات المجتمع الفلسطينى (العلمانيين، والإسلاميين، والمسيحيين) للمنظمة. العلاقة بين إيران وحماس متعددة الجوانب سياسية، أيديولوجية وثقافية. ثمة كثير من النقد، وبخاصة من جانب

مؤيدى فتح – للدور الذى تلعبه إيران فى فلسطين، وأيضا فثمة نقد لدور إيران فى العراق وللقمع السياسى فى إيران. بيد أنه، وبالنسبة للغالبية، فإن إيران هى البلد الوحيد فى المنطقة الذى يتصدى للصهيونية وللسياسة الأمريكية.

يتفحص الفصل السابع الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران ومصر. نرى أنه، ومثلما هو الحال فى إيران، اقتضى التطور الرأسمالى فى مصر الهيمنة الأجنبية. وكنتيجة لهذا شاركت قطاعات مختلفة– إسلامية، قوميون، شيوعيون، نساء وعمال وأقليات – فى النضال ضد الإمبريالية. أيضا، ومثلما هو الحال فى إيران، غدت التوجهات الإسلامية الحداثية ذات تأثير كبير فى مصر.

منذ بدايات القرن العشرين وحتى ثورة ١٩٧٩ قوت الدولتان العلاقات بينهما من خلال روابطهما مع الدول الغربية المهيمنة ومع إسرائيل(١). وبالمثل، فقد قوت الحركات المعارضة فى البلدين الروابط بينهما – فى مواجهة الحكام وداعميهم الغربيين؛ لقيت التوجهات القومية التى تبناها ناصر ومصدق التأييد من الشعبين. كان صعود الإسلاميين فى مصر نتيجة مباشرة لعدم قدرة اليسار العلماني والقوميين على توفير البدائل. وعلى الرغم من اختلاف نظام الدولة والحركات فى مصر وإيران، إلا أن الإسلام السياسى فى مصر قد تغير وتماهى الغالبية مع الإسلاميين الديموقراطيين مثلما هو الحال فى إيران. بيد أنه، وبخلاف إيران، فإن الحركة من أجل الديموقراطية فى مصر تقود الطريق بانفتاحها على الحركات الأوسع فى المنطقة.

---

(١) لم يكن للنظام الرسمى في مصر فى بدايات القرن العشرين وحتى معاهدة كامب ديفيد روابط مع إسرائيل. قامت تلك الروابط منذ نهاية السبعينيات بعد توقيع المعاهدة. (الترجمة)

فى الفصل الثامن أقوم بتحليل السياق الكوكبى للدولة الدينية/ السياسية والمجتمع الإيرانى. أرى أن عداء الغرب لإيران متجذر فى رغبته لعودة البلد لوضع الدولة التابعة العميلة للغرب كى يضمن هيمنته الاقتصادية والسياسية على المنطقة وينكر على إيران استقلالها. تعمل التهديدات المتواصلة بالحرب، والتدخل العسكرى، وفرض العقوبات وتمويل عمليات «تغيير النظام»، تعمل على تقويض الحركة الديموقراطية فى إيران. وبالمثل، فإن عداء الغرب للحركات الإسلامية الحداثية سيعمق من العداء السياسى للغرب وللدول العميلة بالمنطقة، مما ينتج عنه فى نهاية المطاف تقوية التيارات الإسلامية المحافظة فى المنطقة وعلى المستوى الكوكبى.